اللغة العربية[1]

ما اخذت وما اعطت

ايها السادة لا بدَّ لي اولاً من بيان ما في اللغة العربية او ما هي خصائصها ومقوّماتها قبل ان استطيع ابيّن على وجهٍ مفهوم مقبول ما اخذت عن غيرها من اللغات وما اعطتهُ لهنَّ

اللغة العربية نظير كل لغة من اللغات الحية المرتقية لا بدَّ فيها من امور جوهرية لا يجوز اهمالها ولا الاخلال بها . وهذه الامور الجوهرية تبقى من جيل الى جيل لا تتغير في شيء عمَّا كانت عليهِ انما تنمو وتتفرَّع تبعاً لناموس الارتقاء بما يحيل معهُ لغير العارف المحقق ان قد حصل فيها انقلاب وتغيير والحقيقة غير ذلك . فان اهملت هذه الامور الجوهرية او أُخلَّ بها وقفت اللغة عن النموّ او تراجعت الى الوراء وانحطت عما كانت عليهِ . ويتزايد التراجع والانحطاط على نسبة الاخلال بهذه الجوهريات او اهمالها والتنكُّب عنها . وفيها ايضاً امور دعونا نسميها عرضيَّة قد تكون اليوم ولا تكون غداً ووجودها اليوم ان وُجدت لا يشين في عروبة اللغة ولا يزين كما ان سقوطها غداً لا يضر بكيانها ولا ينقص من حيويتها فهي منها اشبه شيء بالورق او بعض الغصون والزوائد من الشجرة الكبيرة . فكما ان بعض اوراق الشجرة اذا تساقطت او بعض اغصانها اذا تشذبت او تهذبت لا يضرُّ بحيوية الشجرة ولا بسلامتها كذلك تلك الامور العرضية اذا تساقطت من اللغة اليوم او قُطعت منها وطُرحت غداً لا يضرُّ ذلك بكيانها ولا تضعف معهُ حيويتها وبعبارة اخرى لا يتراجع نموها ولا تتشاحب اظلالها ولا يتنازل طعم بلاغتها وفصاحتها

لنسأل الآن ما هي مقوّمات اللغة وبعبارة اخرى ما هي الامور الجوهرية فيها او الصفات الذاتية التي لا يستغنى عنها بل تبقى على مرّ الزمان فتتشعَّب وتتكيف بما يناسب حياة اللغة وارتقاءها . واذا فقدت او اهملت ماتت اللغة او توقفت عن النمو والتشعُّب ثم هي في الوقت نفسهِ لا يصحُّ استعارتها من لغة اخرى ولا يمكن ايضاً ان تُستعار وتبقى اللغة هي هي

ايها السادة — ان مقوّمات اللغة او الامور الجوهرية فيها هي شيء آخر غير الفاظها المفردة — لا فرق بين ان تكون تلك الالفاظ اسماء او افعالاً او حروفاً ودليلهُ ان هذه الالفاظ المفردة يمكن ان تستعمل اليوم وتهمل غداً كما انها يمكن ان تترادف وتكثر حتى

(١) من خطبة للاستاذ جبر ضومط استاذ العربية وآدابها في المدرسة الكلية الاميركية في بيروت

تستثقل وتهجر . انظروا الى كثير مما عندنا في كتب اللغة من الاسماء والافعال مما هجر او استكره واهمل فانها تُعَدُّ بالمئات . وكثير من تلك الالفاظ ليس هو في الاصل من كلات اللغة العربية انما هو من الفارسية او الرومية او الهندية استعيرت فاستعملت عند الحاجة وأهملت او أميتت عند عدمها — وتعلمون ان مقوّمات الشيء او الامور الجوهرية فيهِ هي مما لا يفارقهُ وبعبارة اخرى هي مما لا يستغنى عنهُ حيناً ويحتاج اليهِ حيناً آخر . نعم ان كثيراً من اعراض الشيء قد تستمرُّ مصاحبتها لهُ ولا يُستغنى عنها بالفعل او في الخارج فهي من هذا القبيل كالمقوّمات لهُ او كالصفات الجوهرية (اي الذاتية) منهُ . والفارق بينها حينئذٍ أنهُ يمكن فرض الاستغناء عن الاعراض ويمكن ايضاً تصوّر الاستغناء عنها وتصوُّر مفارقتها لموصوفاتها ولا يمكن فرض الاستغناء عن المقوّمات ولا تصوُّر الاستغناء عنها او مفارقتها لما تصحبهُ

استدركتُ ما استدركتُ لئلاَّ يُعترض عليَّ ان كثيراً من الاسماء كالسماء والارض والبرّ والبحر والجبل والوادي والشجر والحجر كانت ولا تزال في لغتنا العربية لم تُهمَل ولا يُخال ان تُهمَل وما زالت في استعمال كل يوم وفي استعمال كل جيل من الاجيال التي عَبَرَتْ ونعرفها فكأنها مما لا يجوز اهمالها ولا يُتصوَّر الاستغناء عنها ومع ذلك هي الفاظ مفردة فكيف تكون من الامور العرضيَّة في اللغة ؟ قلت واقول انها من حيث هي اسماء مفردة ليست من مقوّمات اللغة اصلاً ويمكن الاستغناء عنها وانما استمرَّت في اللغة وفي استعمال كل يوم وكل جيل من اجيال اهل هذه اللغة لان مسمَّياتها مستمرَّة ومشاهدتها اي مشاهدة مسمَّياتها كذلك . وهذا ما يوهمنا انهُ لا يمكن الاستغناء عنها

لا بُدَّ لي هنا من استيفاء المراد او الاطالة اذا شئتم هذه التسمية وإلاَّ ظُنَّ بي اني اريد ما لا اريدهُ او اني اكتب ما لا افهمهُ . ايها السادة . الفرق كبير بين قولنا اسم وهذا الاسم وفعل وهذا الفعل وحرف وهذا الحرف — فان الاسماء والافعال والحروف من حيث هي اسماء وافعال وحروف ضرورية في اللغة العربية وفي كل لغة ايضاً وهي من مقوّمات اللغة او من الامور الجوهرية فيها ولا يمكن الاستغناء عنها حتى ولا تصوُّر الاستغناء ولكن هذا الاسم وهذا الفعل وهذا الحرف يمكن تصوّر الاستغناء عنها وكثيراً ما يصحُّ الاستغناء عنها ايضاً

ظهر اذن لكم الفرق بين الضروري في اللغة وغير الضروري ورأيتم ايضاً الفرق بين استغناء واستغناء وعليهِ فوجود الاسماء والافعال والحروف ضروري في كل اللغات المرتقية ولا يصحُّ الاستغناء عنهُ (اي عن هذا الوجود) بوجهٍ من الوجوه واما كل لفظة من هذه الانواع الثلاثة لذاتها فيمكن الاستغناء عنها احياناً

بقي لي شيء آخر اقوله وهو انّ زيادة لفظة او بضعة الفاظ من هذه الانواع الثلاثة على اللغة قد يكون فيها احياناً غنىً للغة لا يُقدَّر قدرهُ وقد تكون الزيادة لغواً لا فائدة منها . والمحققون من اهل الذوق يعرفون الفرق بين زيادة وزيادة فيزيدون اللفظة التي تزيد في غنى اللغة واتساعها ويجتنبون ما زيادتهُ لغو لا فائدة منها — مثالهُ ان زيادة مترادف من الاسماء الموصوفة او من الصفات كزيادة جوشن مثلاً بمعنى صدر او درع وسَمَيْدَع بمعنى شجاع او سيف وسُمْسُمان وسُمْسُمانيّ بمعنى خفيف لطيف فانها زيادة قلما تنتفع بها لقلة ما نحتاج اليها ولذلك فاستعمالها في كتابتنا او استعارة لفظة مثلها او بمعناها من لغة اجنبية لنستعملها في معتاد استعمالاتنا هو في حكم اللغو والمكروه ويجب تجنّبهُ بخلاف زيادة او ادخال مثل الالفاظ الآتية وهي عَلْواء — وما شاء الله — وبَلْهَ — وكان — وهاي هاي — وهاي لِيصَه — ويراقو فانّ في زيادة مثل هذه الالفاظ في احاديثنا وكتاباتنا الادبية محلاً للفكرة والنظر على ما اظن وذلك لانها لا تُغيّر من جوهر اللغة وفي الوقت نفسهِ الحاجة ماسّة اليها بدليل كثرة استعمالها وجريانها على لسان العامّة منا والخاصّة في الشام ومصر والعراق حتى وفي الحجاز ونجد على ما اظنّ

ذهب بي الاستطراد الى اكثر مما اردتهُ فحال دون ما اريد الى بيانهِ وتمكينهِ في الذهن وهو انّ الالفاظ كل لفظة بعينها سواء كانت اسماً او فعلاً او حرفاً ليست من الامور الجوهرية في اللغة وبعبارة اخرى ليست في عمود اللغة ولا في مقوّماتها فتفقيد زيادتها اللغة اذا زيدت عليها او يتهدّم بنيانها اذا أُهملت او اطُّرحت منها

ومثل الالفاظ المفردة في انهُ ليس من مقوّمات اللغة ولا من الامور الجوهرية فيها تغيُّرات الاعراب في اواخر الكلم المعربة ولاسيما التي ورد فيها مذاهب مختلفة ودليلنا الوقف فانهُ جائز كثير الاستعمال شائعهُ قديماً وحديثاً لم يُنقل عن نحويّ قط انهُ منع جوازهُ . والوقف هو تعطيل الاعراب وازالة حكمهِ بتاتاً وبتحيل او اقلّه يمتنع ان تتعطل مقوّمات الشيء او يزول حكمهُ لان ما يتعطل او يجوز ان يتعطل وتزول احكامهُ عن شيء لا يجوز اصلاً ان يكون من مقوّمات ذلك الشيء او من جوهرياتهِ

الاعراب ايها السادة من اعراض اللغة العربية المضرية واكثر ما نقول فيهِ انهُ بمنزلة العرض العام لا من الصفات الذاتية ولا من مزاياها الخاصة بدليل وجودهِ في غيرها من اللغات العربية كاللغة اليونانية واللاتينية . وهو في كثير من المواقف زينة في اللغة لا غير الاّ انهُ قد يكون احياناً مساعداً على الفهم ومنع الالتباس وحكمهُ حينئذٍ حكم القرائن

المختلفة التي تساعد على سهولة الفهم وصرف المعنى الى ما يراد . ولهذا لا يجوز الاستخفاف به دائماً لكنَّ المغالاة به حيث لا تصح المغالاة ضرب من انزال الشيء فوق منزلته وحسبان الخادم في كثير من المواضع مخدوماً وسيداً . وبالاجمال اقول ان المغالاة فيه التي هي في غير موضعها ضرب من السخف المضرّ . واضرّ ما تكون اذا كانت احكامهُ خارجة عن القواعد الكلية المساعدة على فهم المعنى المراد وداخلة في ما تعمق به بعض اصحاب المذاهب الذين خلطوا فادخلوا كثيراً من احكام علوم الكلام والفلسفة والخط في احكام النحو والاعراب مع بعد ما بينهما

ومن قبيل الالفاظ المفردة واعراب اواخر الكلم الهيئات التركيبية فانها اي الهيئات التي تتعلق بها فصاحة المركّبات وبلاغتها حكمها حكم الالفاظ المفردة بمعنى انها من حيث هي تراكيب فصيحة او بليغة لا بدَّ من وجودها في اللغة . ولكن هذه الهيئة او هذا التركيب بهذه الالفاظ قد يسقط من اللغة او يزاد عليها مثلهُ فلا يهدم سقوطهُ اركانها ولا تُفسد بلاغتها زيادتهُ او زيادة مثلهِ عليها

وصلت الى نقطة لا اراني استطيع تركها من غير ان ابسط الكلام فيها شيئاً وهي : — يزعم كثيرون من اهل العربية ان الهيئات التركيبية فيها محصورة وهذا وان لم يقولوهُ صراحة يقولونهُ ضمناً . واذا كانت الهيئات التركيبية محصورة اذن لا يجوز الخروج عنها لانَّ الخروج عنها خروج عن الفصاحة والبلاغة . ولما كانت الفصاحة والبلاغة من الكلام بمنزلة الكرم والشجاعة والعفة من الصفات الفاضلة كان التركيب الذي يعرى من هذه كالشخص الذي يعرى من تلك . وفي هذا القول كثير من الحق والصواب وكثير من الباطل والخطاء

اما الحق والصواب ففي ان الهيئات التركيبية اذا خلت من الفصاحة والبلاغة خرجت عن ان تكون اجزاء لغة راقية وسخت اللغة عن صورتها العائلة الادبية الى ما هو دون ذلك واما الباطل والخطاء ففي امور كثيرة نشوم منها

(اولاً) ان الهيئات التركيبية الفصيحة والبليغة محصورة وانها محصورة في التراكيب التي وصلت الينا عن العرب في نحو من مئتي سنة على الاكثر . فان هذا ممَّا لا يقول بهِ صاحب رويَّة . وهو وان كان ممكناً ان يكون عقلاً فلا يمكن ان يكون وجوداً لان البلاغة تقتضي المطابقة لمقتضى الحال ومقتضى الحال يختلف باختلاف الزمان والمكان وباختلاف المخاطِب والمخاطَب واختلاف احوالهما . واختلاف الزمان والمكان مضافاً اليهِ اختلاف المتكلمين واختلاف افكارهم ومشاربهم وقوى عقولهم يتولد عنهُ من الصور ما لا يقع تحت حصر

وجودي . ثم على فرض انهُ يستطاع حصر الهيئات التركيبية الفصيحة والبليغة بعدد معلوم فهذا العدد يتجاوز المئات وربما تجاوز العدد المركَّب منها . وهذا العدد من هذه الصور والهيئات يستحيل على العقل الانساني الاحاطة بتصوّرهِ في زمانٍ من ازمنتهِ المحدودة . والحصر الفعلي الذي يترتب عليهِ فائدة لا يكون الاَّ اذا احاط الفكر بالمتصوَّر وتخيَّلهُ جميعهُ دفعةً واحدة او ما هو من قبيل الدفعة الواحدة

(ثانياً) ان تكون الهيئات التركيبية المعلومة عملاً اجمالياً عند ادباء العربية مما اودعتهُ اسفار الادب ودفاترهُ كلها فصيحة بليغة فانَّ ذلك مما يصعب التسليم بهِ . واكثر من ذلك ان تكون الهيئات التركيبية المنقولة في كلام من كانوا قبل الاسلام افصح وابلغ من هذه الهيئات المنقولة عن امثالهم في صدر الاسلام وبعدهُ الى عصرنا الحاضر . فانَّ هذا الخطاء شائع متداول واكثر ادبائنا والمشتغلين بعلوم البلاغة منا قديماً وحديثاً كأنما هم يذهبون اليهِ ويرون في الهيئات التركيبية والمركبات المنقولة عن اصحاب المعلقات وغيرهم ممَّن سبقهم او عاصرهم — فصاحةً وبلاغةً لا يرون مثلها لمن جاء بعدهم من مولدي الاسلام ومولَّديهم مولَّديهم . بل كثيرون على ما يُخال يذهبون الى ان جميع ما نُقل عن الجاهلية فصيح بليغ بلا استثناء وهذا وهم فاضح ومن الاسف انهُ شائع مقبول عند الكثيرين من غير تحريج ويكاد الاقلون ممن يرتابون بصحة هذا الزعم لا يجسرون ان يرفعوا اصواتهم في نفيهِ او الاعتراض عليهِ انما هم يتهامسون بهِ همساً فيما بينهم

(ثالثاً) من الخطاء ايضاً ذهاب كثيرين الى ان الفصاحة والبلاغة درجة واحدة وهذه الدرجة يرونها في هذا النوع من الكلام الذي يهيج من حاسَّة الاستحسان وما ناسبها او من حاسَّة الاستهجان وما ناسبها . فان رأوا مبالغة قد تخرج عن حد المقبول او رأوا تشبيهاً او استعارةً في مدح ممدوح او ذمّ مذموم او في فخر او في نسيب او في حكمة وجاء شيء منها في شيء من الغرابة المقبولة اكبروا ذلك وظنوا ان هذا الذي اكبروهُ انما جاء من قبيل بلاغة الهيئة التركيبية . وقد لا يكون هناك فصاحة ولا بلاغة في التركيب تدعو الى مثل ذلك الاستحسان بل الاستحسان انما كان لتلك المبالغة او الاستعارة او لذلك التشبيه وما صحب المبالغة من الغرابة او صحب الاستعارة والتشبيه من الغرابة والمطابقة . والمحققون على ان بلاغة التركيب قد تكون ولا يكون هناك استعارة ولا تشبيه وقد تكون ويكونان معاً ولكنهما متمايزان في نفسيهما كل التمايز وان خفي ذلك على كثير من البلغاء بالفطرة او المتبالغين . وهذا الخلط بين حسن الاستعارة او التشبيه وبين بلاغة المركَّب والتركيب كان

فاشيًا في ايام الامام العلاَّمة الجرجاني صاحب كتاب اسرار البلاغة وكان يؤلِّهُ ايضاً

والخلاصة ان ما يُتشبَّع به من ان هذه التراكيب والهيئات التي جاءت في كلام الجاهلية هي التي بها قامت مقوِّمات اللغة العربية وتفوَّقت على غيرها من اخواتها الساميات وعلى غيرهنَّ من اللغات الاخرى هو مجرَّد تشبُّع يقول به اقوام قلّوا او كثروا ولكنهُ عارٍ من التحقيق . فالبلاغة غير منحصرة في جيل دون جيل ولا هي ايضاً خاصَّة بزمان دون زمان ولا بمكان دون مكان وان اختلفت وتباينت باختلاف الزمان والمكان . وعليهِ نقول ان امرأ القيس كان بليغاً في عصره وكذلك كان جرير والفرزدق والاخطل في عصرهم وكذلك كان ابو نواس وابو تمام والبحتري كلٌّ في عصره . شاعر بليغ الاَّ انَّ بلاغة جرير والفرزدق قد تكون في نوعها غير بلاغة ابي تمام والبحتري كما لا يبعد ان تكون بلاغة هذين غير بلاغة المتنبي وغير بلاغة ابي فراس الحمداني — تكون غيرها ولا تكون اعلى درجة منها — وهكذا يقال في بلاغة امرئ القيس وغيره من اصحاب المعلَّقات انها غير بلاغة ابي نواس او ابي الطيب المتنبي ولكنها وان كانت غيرها قد لا تكون ادنى منها . ولا دخل في ذلك لتقدُّم زمان امرئ القيس ولا لتأخُّر زمان المتنبي بل بلاغة المتنبي قد تكون اعلى واوسع من بلاغة امرئ القيس (وفي كذلك) على نسبة ما كانت مدارك هذا اعلى من مدارك ذاك — وما قلتهُ في المتنبي وامرئ القيس اقول مثلهُ في ابي نواس والبحتري فانهما وان تأخَّرا عن جرير والاخطل في الزمان فقد تقدَّماهما في البلاغة وان كان الاولان اقرب الى مناحي البداوة والثانيان الى مناحي الحضارة

لكن يقول قوم ان امرأ القيس يُستشهد بكلامهِ في اللغة والاعراب ولا يُستشهد بكلام المتنبي وكذلك يُستشهد بكلام الفرزدق والاخطل ولا يستشهد بكلام ابي تمام والبحتري . ويستنتجون من ذلك أنَّ امرأ القيس ابلغ من المتنبي والفرزدق والاخطل ابلغ من ابي تمام والبحتري . والاستطراد الى الردّ على فساد هذه المزاعم واشباهها يخرجني الى ما لا يحتملهُ المقام فاجتزي بسرد القصة التالية

حكي ان ابن الانباري دخل على قوم فانشدهُ بعضهم قصيدةً لابي تمام ونسبها المنشد الى احد شعراء الجاهليَّة فطرب لها ابن الانباري وامر كاتبهُ ان يودعها في دفاترهِ فلما أتى الكاتب على آخرها قيل لهُ في لابي تمام قال فقال ابن الانباري — « من اجل هذا رأيت اثر الركاكة عليها — خرِّق يا غلام خرِّق خرِّق » . وكنت احبُّ ان انقل القصة بحروفها كما قرأتها ولكني أنسيتُ الكتاب الذي قرأتها فيهِ وبقي في ذهني ان الكتاب من الكتب التي يعتمد على صحة روايتها

ولا اقول ان هذه الفكرة عمّت بدون استثناء ولكن اقول ان الكثيرين اخذوا بها في الاجيال التي مرّت قبلنا فغلب رأيهم على رأي المحققين من العقلاء في كل جيل الذين كانوا يقولون ان اللغوي شأنهُ ان ينقل ما نطقت بهِ العرب ولا يتعداهُ واما النحوي فشأنهُ ان يتصرّف فيما ينقلهُ اللغوي ويقيس عليهِ « المزهر جزء اول وجه ٣٠ طبعة بولاق »

يتأتى البقية جبر ضومط

خزان اصوان وفوائدهُ

بينما ترى الدولة العلية صاحبة السيادة على القطر المصري تشكو من حرب طاحنة استنزفت اموالها وكادت تذهب بربع بلادها والاصدقاء يجمعون لها الاموال لمؤاساة جرحاها وتطبيب مرضاها ترى القطر المصري يحتفل بعمل هندسي كبير انفق عليهِ اكثر من مليون من الجنيهات ويرجو ان يستفيد منهُ مضاعف ذلك سنويًا الاّ وهو تعلية خزان اصوان وقد قام بهذا العمل وغيره من الاعمال العظيمة النافعة والاموال متوفرة في خزائنهِ . ولو جرت الحكومة العثمانية مجراهُ منذ ثلاثين سنة الى الآن لفاقت عليهِ في اتساع الاعمال وتوفر الاموال

اما الخزان فوصفناهُ حينما تمّ بناؤهُ منذ عشر سنوات وقلنا حينئذٍ انهُ لو عُلّيَ ستة امتار اخرى لتضاعف نفعهُ . وهذا نصّ عبارتنا « ان هذا الخزان في حالتهِ الحاضرة لا يفي بنصف الفائدة التي تنال منهُ لو أُنفق عليهِ مثنا الف جنيه أُخرى عُلّيَ بها ستة امتار فوق علوهِ الحاضر ولو غمر الماء حينئذٍ مباني انس الوجود » (انظر الصفحة ٣ من مقتطف يناير سنة ١٩٠٣) . وقد تحقق الآن ما قلناهُ حينئذٍ فعُلي الخزان ستة امتار فتضاعف مقدار المياه التي تخزن بهِ وغمرت انس الوجود ولم يختلف ما تمّ عمّا قلناهُ الاّ في مقدار النفقة وسبب ذلك الاضطرار الى تحريك الخزان وكان السر وليم ولكوكس قد أكّد لنا ان البناء الاول يحتمل التعلية من غير ان يزاد عرضهُ ولكن ظهر بعد ذلك للمهندسين ان تعريضهُ اسلم عاقبةً فزادت النفقات بسبب ذلك

وقد نشرت الحكومة بيانًا لحال الخزان الآن وما اقتضتهُ تعليتهُ من النفقات وما يُنتظر منهُ من النفع وهاك ترجمة ذلك